

أبناءُ العهد والرهبنة السريانية البدائية

أفرايم عبود إسحق*

في القرن الرابع الميلادي تُخبرنا
مواضع أفراهاط السرياني⁽¹⁾ عن مكرّسين
يُدعون بأبناء العهد، وغالبًا كانت الترجمات في
بدايات القرن العشرين تصفهم بالرهبان التي
اختلف مفهومها مع الرهبنة المصرية؛ التي بدأت
بالانتشار سريعًا في العالم المسيحي، ابتداءً من
نهايات القرن الرابع. ويُطلق المستشرقون على
تلك الظاهرة التي عاشها مار أفرايم السرياني
«الرهبنة البدائية السريانية»، التي اختفت مع
رواج الرهبنة المصرية في سورية وبين النهرين.

(* باحث ما بعد الدكتوراه في جامعة غراتس (University of Graz) النمسا.

(1) أفراهاط (بالفارسية: فرهاد) أو معروف بـ(يعقوب أفراهاط الحكيم الفارسي): راهب وكاتب سرياني عاش في منطقة حدياب شمال بلاد ما بين النهرين، التي كانت واقعة حينها ضمن أراضي الإمبراطورية الفارسية. راجع: ألبير أبونا، أدب اللغة الآرامية، الموصل، بيروت، 1970.

وازنت الرهبنة بين التكريس الكامل لابن الله الوحيد مع العيش في إطار حياة الجماعة المسيحية اليومي. هذه الورقة تسلط الضوء على أهمية هذا النوع من الرهبنة البدائية، وإمكان الإفادة منها بالتركيز على مبدأ التكريس ليسوع في المجتمع، ومناقشة إمكان إحيائها في العالم المعاصر.

كيف صور المؤرخون الرهبنة البدائية؟

عندما اعتاد المؤرخون التكلّم عن النسك السوري، أو السرياني، قبل القرن الرابع الميلاديّ في سورية، حاولوا تصوير لوحة بسيطة عن بدائية طرق الحياة النسكية هناك، وقد لا تخلو من السخرية تجاه تلك المذاهب النسكية البدائية⁽²⁾.

إلا أنّ المقالة الرائعة للأب العلامة سيدني غريفيث (Sidney Griffith) من الجامعة الكاثوليكية - واشنطن د. س. (Asceticism the Church of Syria: The Hermeneutics of Early Syrian Monasticism)، قد غيرت هذه الصور التي اعتاد مؤرخو هذه المرحلة تقديمها دون التركيز على مدى أهميتها. فأبّ باحث ملّم بالنسك في سورية، يعرف تماماً المؤسّسة النسكية الفريدة التي امتازت بها تلك المنطقة، وخصوصاً المعروفة بكورة أنطاكية وبين النهرين. ولعلّ واحداً من أبرز الأمثلة المشهورة هو القديس سمعان العامودي⁽³⁾،

(2) Peter Brown, The Body and Society; Men, Women and Sexual Renunciation in Early Christianity (New York: Columbia University Press, 1988) p. 330.

(3) سمعان العامودي: ناسك سوريّ ولد بين سورية وقيليقيا في الربع الأخير من القرن الرابع. عاش بالقرب من مدينة حلب (كورة أنطاكية) ابتكر طريقة التسلّك على عمود حجري، وهي طريقة انتشرت بعده في مدن ومناطق

أفرايم عبّود إسحق

وهو ممثّل مدرسة العاموديّين التي امتدت في تلك المناطق المذكورة، وأصبحت مناصّاً لعشاق الزهد والروحانيّة السوريّة الفريدة، حيث يتدرّج العاموديّ على سلّم النسك بأنّ يترقّع حرفياً عن ما حوله بحجر ثم على رأس عامود، ويخدم من قبل الجماعة الرهبانية التي تتجمّع تحت هذا العامود. ولعب العاموديّون دوراً كاريزمياً في حلّ كثير من الأسئلة والتحديات التي لم تستطع السلطات الكنسيّة بأجوبتها إفتاع المؤمنين.

من أهمّ الأمثلة ربّما قد يكون يوحنا عامودي أتاب الذي كان يسأل مار يعقوب الرهاوي في قضايا حساسة عدّة بما يخصّ قدوم العرب المسلمين إلى شمال سورية⁽⁴⁾. إذن الصورة البسيطة عن تلك الرهبنة التي يصوّرها المؤرّخ الكبير بيتر براون (Peter Brown)، بأنّها «مارست الحرّيّة في التعبّد كالبهائم التي تسرح وتمرح في الجبال، مع الخراف التي تتغذّى على الأعشاب»، هي صورة غير دقيقة. ولا يعطي المؤرّخ براون أهميّة حقيقيّة لتلك الظاهرة الرهبانية المتميّزة، بل هو وغيره من المؤرّخين اعتادوا إعطاء صورة سلبية، بأنّها مثال لفوضى نسكيّة غير منظمّة.

عندما نتكلّم عن المسيحيّة السريانيّة، علينا أن نتذكّر مدينتين

الشمال السوري كافة. من أهمّ الدراسات العلميّة عن هذه الطريقة من النسك العاموديّ، قد تكون الأبحاث التي نشرها الآباء الفرنسيّون في حلب، وخصوصاً بهمة الأب باسكال كاستيلانا. راجع: Ignacio Peña, Pascal Castellana and Romuald Fernández, *The Syrian Stylites*. SBF Collectio Minor 16. (Milano: Franciscan Printing Press, 1975).

(4) Karl-Erik Rignell, ed. *A Letter from Jacob of Edessa to John the Stylite of Litarab Concerning Ecclesiastical Canons: Edited from Ms. Br. Mus. Add. 14,493 with Introduction, Translation and Commentary* (Lund: C.W.K. Gleerup, 1979).

هامّتين: نصيبين والرّها⁽⁵⁾. ولا مجال للشك بأنّ أسماء معروفة قد لعبت دوراً رياديّاً من أمثال أتباع ماني ومريقيون وبرديسان. هاتان المدينتان كانتا القطبين اللذين تفاعلت بينهما اللغة والثقافة السريانية. نصيبين: كانت دائماً في قلب ما بين الحكم الفارسي والروماني، وعاشت تجربة المدينة الحدودية.

أمّا الرّها: فعلى الأقل منذ القرن الثاني الميلاديّ صارت تحت سيطرة شبه دائمة تحت أركان الإمبراطورية الرومانية، مع الحفاظ على استقلاليتها الثقافية. ولقد تكوّنت فكرة «كنيسة الإمبراطورية» بشكل مبكر في هذه المدينة، والتي ترافقت أيضاً مع حركات رهبانية باكرة. إذ إنّنا نلاحظ مع القرن الرابع الميلادي في مدينة الرّها، ازدهاراً للمؤسسة الرهبانية التي تطوّرت بشكل متواز مع المؤسسة الإكليزيولوجية والأسقفية، خصوصاً بعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً.

تحتاج الحركات الرهبانية السريانية لدراسات أكثر تعمّقاً، من دون العودة إلى الافتراضات التي اعتاد مؤرّخو هذه الحقبة تصورها. إنّ معظم الدراسات التي تمّت في العقود الأخيرة من القرن العشرين اعتمدت على الافتراضات السابقة كأنها حقائق، والتي لها مصدران: أولاً: الأدب الهاغيوغرافي الرهباني التقليدي الشائع المنحدر من الوسط اليوناني – السرياني، والذي نال رواجاً في مراحل لاحقة مثل

(5) لمعلومات شاملة وكمقّمة للتعرف على المسيحية السريانية والتراث الآرامي قبل المسيحية، والفترة المسيحية

الذهبية وعصر النهضة للأدب السرياني حتى نهاية القرن العشرين، راجع:

Sebastian P. Brock and David G.K. Taylor, *The Hidden Pearl: The Syrian Orthodox Church and its Ancient Aramaic Heritage* (Rome: Trans World Film, 2001).

تاريخ أصفياء الله لثيودوريتوس القورشي⁽⁶⁾. ثانياً: الخطأ الأكاديمي في تحديد تاريخ أصالة بعض النصوص التي تتعلّق بتراث الرهبنة البدائيّة السريانيّة.

هذه الدراسات حاولت تقديم أيقونات نصيّة مُعمّدة على البروفائيات الهاغيوغرافيّة، التي مصدرها الحلقات الرهبانيّة ذات الخلفيّة السريانيّة- البيزنطيّة بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين. هذه النصوص المهجّنة بروحانيّة متأخرة ليس لها أي علاقة تاريخيّة مباشرة بهؤلاء الرهبان السريان القدامى. النتيجة كانت: تقديم الصورة المتعارف عليها فيما بعد، بأنّ مصدر الرهبانيّة في العالم الناطق بالسريانيّة كان جزءاً من ظاهرة بدأت في الصحراء والبوادي المصريّة في أيّام القديس أنطونيوس. هذه الصورة بدأت بالترسّخ حتى في الأدب السريانيّ الرهبانيّ المتأخّر، مثل سيرة مار أوكين⁽⁷⁾، التي نالت رواجاً كبيراً.

في الدراسات الحديثة يتلخّص الخطأ حول الرهبنة السريانيّة من خلال نسب خمسة نصوص سريانية إلى مار أفرايم السرياني. هذه النصوص تصف فكر النساك السريان الذين هربوا إلى الصحارى والجبال في سورية لكي يتمثّلوا بالمتوحّدين (Anchoritic Ideal). هذه النصوص هي: «رسالة إلى الجبليّين»، «في حياة الوحدة للمتوحّدين»، «عن المتوحّدين والنساك والباكين»، ونصّ آخر بعنوان مشابه: «عن

(6) للاطلاع على الترجمة العربيّة، راجع: تاريخ أصفياء الله - ثيودوريتوس أسقف قورش، ترجمه عن أصله اليونانيّ: الأرشمندريت أدريانوس شكور، المكتبة البولسيّة، يونيو (حزيران) 1987.

(7) Jean-Maurice Fiey, «Aonès, Awun, et Awgin (Eugène) aux origines du monachisme mésopotamien», Analecta Bollandiana 80 (1962) pp.52-81.

المتوحّدين والنسك والحزاني». المشكلة في هؤلاء المستشرقين مثل العالم الكبير آرثر فوبوس (Arthur Vööbus) في كتابه المشهور: «تاريخ النسك في الشرق السرياني»⁽⁸⁾، والذي يدافع بقوة عن أصالة هذه النصوص في نسبتها إلى مار أفرام السرياني.

هذا الاعتقاد أفضى إلى معاملة هذه النصوص على أنها وثائق تنقل لنا صورة النسك السرياني في سورية خلال القرن الرابع، وربما هذا ما دفع المستشرق بيتر براون (Peter Brown) كما ذكرنا سابقاً، لتشكيل تلك الصورة البسيطة عن تلك الرهبنة السريانية البدائية. في الحقيقة، وكما يقول الأب سيدني غريفيت في مقالته التي أشرت لها في البداية⁽⁹⁾، يوضّح أنّ هذه النصوص موجودة في مخطوطات أخرى وهي منسوبة إلى مار إسحق السرياني⁽¹⁰⁾، أي للقرن الخامس الميلادي، أي بعد حوالي قرن كامل من عصر مار أفرام السرياني. النتيجة التي يمكننا الوصول إليها، أنّ هذه النصوص لا تخبرنا عن أصل الرهبنة ضمن النسك السريان، بل تعكس تطوّر فكرة التوحّد التي أتت في وقت متأخر، ولا علاقة لها بأعمال مار أفرام الأصلية.

(8) Arthur Vööbus, History of Asceticism in the Syrian Orient: A Contribution to the History of Culture in the Near East. CSCO 184, 197, 500, Subs. 14, 17, 81. (Louvain: Secrétariat du Corpus SCO, 1958, 1960, 1988).

(9) Sidney H. Griffith, «Asceticism in the Church of Syria: The Hermeneutics of Early Syrian Monasticism,» in Asceticism.

(10) Edward George Mathews, "'On Solitaries', Ephrem or Isaac?", Le Muséon 103 (1990) pp.91-110.

قراءة للنصوص التي تتحدّث عن الرهبنة السريانيّة

عندما نقرأ نصوص كتّاب سريان من القرن الرابع بدون الافتراض المزروع سلفاً في الذهن؛ من الأيقونة البيزنطيّة للقديس الذي يقود حياة النسك، ومن دون الفكرة المُفترضة -حسب فوبوس- بأنّ هذه الأنماط هي تطوّر للرهبنة، أو شكل بدائيّ للرهبنة المصريّة لاحقاً، سنوافق الأب سيدني غريفيت بأنّ النمط الرهباني في أيام مار أفرايم هو نمط مشابه لما قد يجده الدارسون المعاصرون من الرهبنة في مصر على سبيل المثال. وتجدر الإشارة إلى أنّه في العالم الناطق بالسريانيّة، المصطلحات التي أُطلِقَت على الحياة الرهبانيّة لها خصوصيّتها من حيث المعنى والمفهوم، والتي لم تضع في التطوّرات والتأثيرات اللاحقة.

قد نأخذ -مثلاً- النصوص المهمّة التي كتبها أفراهاط⁽¹¹⁾ (الحكيم الفارسي ت 345م) وأفرايم السرياني⁽¹²⁾، والتي تسلّط الضوء على نمط حياة في كنائس سورية، وهو نمط جماعات «غير المتزوّجين» في خدمة الله، والتي تشبه طريقة حياتهم بما قد يتوازي مع العذارى والأرامل في الكتاب المقدّس⁽¹³⁾. تلك الجماعات احتوت رجالاً

(11) Jean Parisot, ed. *Aphraatis Sapientis Persae Demonstrationes*. *Patrologia Syriaca* (Paris, 1884).

(12) Edmund Beck, ed. *Des heiligen Ephraem des Syrsers Hymnen de Paradiso und contra Julianum*. CSCO 174-175, Syr. 78-79) Louvain: Peeters, 1957).

(13) Sebastian P. Brock, *The Luminous Eye: The Spiritual World Vision of St Ephrem* (Rome: Center for Indian and Inter-Religious Studies, 1985).

ونساءً والذين قانونياً قبلوا رسمياً في الكنيسة في الربع الأول من القرن الرابع⁽¹⁴⁾. وبالإضافة إلى تلك الجماعات البتوليّة، برزت أيضاً أنماط رهبانيّة متّوحدة في سورية مثل شخص يوليان سابا (يوليان الشيخ ت 367م)، إذ إنّ خبرته في الرهبنة أخذت رواجاً وإعجاباً في قصائد مار أفرام التي باتت تُرتل في الكنائس، مثل حياة أنطونيوس التي كتبها أثناسيوس وصار لها رواج كبير في مصر والعالم لاحقاً⁽¹⁵⁾. ولكن ما يميّز قصائد مار أفرام عن شخص سابا هو أنّها نقلت مصطلحات للنسك التقليدي السرياني.

في نهاية القرن الرابع وحتى القرن الخامس، تبنت الكنيسة في سورية النمط الرهبانيّ الجديد، وأشكال النسك الجديدة التي ترافقت مع القيادات الإكليزيولوجيّة الكنسيّة التي هدفت لتوحيد الأنماط، كاتباع نمط ليتورجيا «الكنيسة العظمى»⁽¹⁶⁾، وفي الوقت نفسه تطوّر هذا النمط الرهبانيّ ضمن خصوصيّة فيما يتعلّق باستخدام بعض المصطلحات التقنيّة الخاصّة بها، والتي على الأرجح أنّها كانت مألوّفة

(14) سبستيان، بروك، نشوء الفكر المسيحي: مدارس أنطاكية والرّها ونصيبين اللاهوتيّة المسيحيّة عبر تاريخها في المشرق، الطبعة الثانية، بيروت، 2002.

(15) لمعلومات أكثر عن مار أفرام السريانيّ ونمط الحياة النسكيّة في عصره، راجع: مار أفرام السرياني شاعرًا لأيامنا، سلسلة التراث السرياني أعمال المؤتمر الحادي عشر، مركز الدراسات والأبحاث المشرقيّة، أنطلياس، 2007.

(16) في دراسة اللاهوت الشرقيّ الأرثوذكسيّ، مصطلح «الكنيسة العظمى» يعني كنيسة «هاغيا صوفيا» في القسطنطينيّة، والتي من خلال المكانة السياسيّة لكنيسة عاصمة الإمبراطوريّة المسيحيّة الكبرى، صارت هذه الكاتدرائيّة المثال الليتورجيّ والتي توجّب في مراحل لاحقة، اتّباع نمطها الليتورجيّ ليكون «الترتيب الليتورجيّ» في أرجاء الإمبراطورية البيزنطيّة. نجد هذا التأثير واضحاً في شروحات القدّاس اليونانيّة والتي تأثرت بها الشروحات السريانيّة.

وَمُسْتَعْدَمَةٌ سَلْفًا ضَمِنَ الْأَجْوَاءَ الْمَانَوِيَّةَ⁽¹⁷⁾.

عكسَ العاموديّونَ أيضًا تعبيراتٍ لهذه الخصوصيّة الرهبانيّة السريانيّة، كذلك أيضًا النوّاحون أو الباكون والمتوحّدون والجبليّون. وفي وقتٍ لاحقٍ تأثّر السريان بروحانيّة وفكر إيفاغريوس البنطي بشكلٍ ملحوظ، والشّراح الذين تأثّروا به مثل: بالاديوس وحتى ثيودوريّطوس القورشي، وتدرّجياً بدأ هذا الفكر الرهبانيّ بالروج ضمن الإطار السريانيّ النسكيّ. النقطة المهمّة هنا فيما يتعلّق بهذه الشخصيات المذكورة هو أنّهم لم يكونوا من النساك السريان الأصليين. إنّما حماسهم النسكيّ كان نتيجة التغيّر في المناخ النسكيّ الأصيل الذي بدأ في القرن الرّابع بعد إعلان قسطنطين السلام على الكنيسة. «الرهبنة» (Monasticism) هو المصطلح الذي أتى طبيعيّاً للشكل النسكيّ الجديد، وصار العلامة المميّزة لما أطلق عليه اليونان «التصوّف (Anachoresis)» وهو مغادرة أفراد أو مجموعات حياة المدينة - حياة كنيسة المدينة - إلى مناخ أكثر ملاءمة لممارسة النسك وللحصول على الحرّيّة الكافية لعيش الحياة الروحيّة بشكلٍ يوميّ مُلتزم. ولكن الكنيسة في سورية حافظت على الطُرق الأقدم، واستمرّت بعيش هذه الطُرق الروحيّة القديمة في إطار الجماعة العام، وحافظت أيضًا على استخدام المصطلحات النسكيّة القديمة على الرغم من تبنيّ الأنماط النسكيّة الجديدة. أي بكلامٍ آخر: تطوّرت المصطلحات الرهبانيّة

(17) Han J.W. Drijvers, «Odes of Solomon and Psalms of Mani: Christians and Manichaeans in Third-Century Syria» Studies in Gnosticism and Hellenistic Religions Presented to Gilles Quispel on the Occasion of His 65th Birthday. Ed. Roelof van den Broek and Maarten J. Vermaseren. Études préliminaires aux religions orientales dans l'Empire romain 91 (Leiden: E.J. Brill, 1981).

القديمة ضمن الأشكال الجديدة للحياة الرهبانية القادمة لسورية.

في هذه الورقة سنتكلم فقط عن نمطين عريقين من الرهبانية السريانية: الإيحيديا (المتوحدون)، وبناي قياما (أبناء العهد) والهدف هو التركيز على المبادئ الأساسية التي قامت عليها هذه الأنماط الرهبانية، وكيف يمكننا الاستفادة من هذه المبادئ في عالمنا المعاصر؟ خصوصاً وأن أبناء العهد - كما سنجد - عرفوا كيف يعيشون روحانيتهم مع بقائهم في المجتمع دون الانفصال عنه مادياً، وهذا ما قد نستفيد منه اليوم.

الإيحيديا

في تقليد الكنائس الناطقة بالسريانية، يظهر مصطلح «الإيحيديا» في النصوص القديمة مرافقاً مع مصطلح بناي قياما، والبتولة، والقاديشة، ليميز طبقة من الناس في الجماعة المؤمنة الذين يحتلون مكانة خاصة في الكنيسة. لم يكونوا خداماً في الكنيسة (أي إكليروساً) مثل الشاموشي، أو المشمشوني (شمامسة)، أو القاديشي (الكهنة)، أو رعيوثا (المطارنة الرعاة). ولكن ومع هذا فإن الإيحيديا في بعض الأحيان نجد أنهم من ضمن الرتب الرسمية الثانوية في الخدمة الرعوية في الكنيسة لأنهم كانوا يُدعون في بعض الأحيان لخدمة المطران المحلي⁽¹⁸⁾.

(18) A.J. van der Aalst, «A l'origine du monachisme syrien. Les 'ihidaye' chez Aphraat», Fructus centesimus. Mélanges offerts à Gérard J.M. Bartelink à l'occasion de son soixante-cinquième anniversaire. Ed. Antonius Adrianus Robertus Bastiaensen, Anthony Hilhorst and C.H. Kneepkens, Instrumenta Patristica 19. (Dordrecht: Kluwer / Steenbrugis: Abbatia S. Petri, 1989) pp. 315-324.

إلاّ أنّ «الإيحيديا» احتلّوا مركزًا يمكن مقارنته بالأرامل والبتولات المعروفات في العهد الجديد من الكتاب المقدّس. في الحقيقة، إنّ مصطلح الإيحيديا -بشكلٍ عام- أتى ليشمل كلّ من الرجال والنساء البتوليّين، بالإضافة إلى هؤلاء الذين كانوا متزوّجين في وقت ما، والذين كرّسوا أنفسهم بطريقة خاصّة ثمّ عاشوا مكرّسين بلا زواج في الجماعة المسيحيّة تحت اسم القاديشي (أي القديسين). النصوص الأقدم بالسريانيّة التي قد تساعدنا لفهم المعنى الصحيح لمصطلح الإيحيديا في إطار القرن الرّابع، هي مواعظ أفراهاط، الحكيم الفارسي، والترانيم والعظات لأفراام السرياني، إذ إنّ مع القرن الرّابع مصطلح الإيحيديا كان قيد الاستخدام في الحلقات الكنسيّة الإكليزيولوجيّة.

من الجدل حول هذا المصطلح اتفق المستشرقان إدموند بيك وآرثر فوبوس على أنّ المعنى أقرب إلى الكلمة اليونانية (Monachos) بينما ألفرد آدم (Alfred Adam) ⁽¹⁹⁾ وأنطوان غويلومونت (Antoine Guillaumont) ⁽²⁰⁾ شدّدا على أنّ الكلمة في العالم السريانيّ كانت تعني «المتوحّد، المنفرد، الأعزب».

لخصّ العلامة المستشرق روبيرت مري معنى مصطلح الإيحيديا من مرجعيته إلى الزهد المسيحي، عندما صار واضحًا علميًا في بداية النصف الثاني من القرن العشرين في الجدل حول معنى الإيحيديا،

(19) Alfred Adam, «Der Monachos Gedanke innerhalb der Spirituahcat der alten Kirche», Glaube, Geist, Geschichte; Festschrift E. Benz (Leiden, 1967) pp.259-265.

(20) Antoine Guillaumont, «Monachisme et éthique judéo-chrétienne», Recherches de science religieuse 60 (1972) pp. 199-218.

بأن المصطلح يتجلى في ثلاثة معانٍ (Monachos): الأعزب من امرأة أو عائلة، و (Monotropos) أعزب القلب و (Monogenes) المتحد بالابن الوحيد. هذه المعاني الثلاثة هي في الحقيقة معاني الـ (Monachos) التي ذكرها أوسابيوس القيصري⁽²¹⁾ خلال مناقشته لكلمة (Monotropus).

استطاع المستشرق روبرت مري (Robert Murray) أن يظهر أنه في السريانية خصوصاً في كتابات مار أفرام، هذه المعاني لكلمة إيحيدايا مهمة جداً لنفهم الاستعمالات المتعددة لهذه الكلمة⁽²²⁾. فكلمة إيحيدايا ليست محدودة بمعنى العزوبية أي البتولية وعدم الزواج، بل المعنى أكبر من ذلك بكثير، إذ تشمل التوحد وطلباً لسبب روحي ما خلال مرحلة روحية معينة، خصوصاً عندما تُقال عن العلاقة الخاصة مع يسوع المسيح «الوحيد»، ابن الله الوحيد. هذا المعنى الأخير كما يقول الأب سيدني غريفيث كان الأكثر شيوعاً بين السريان. بكلام آخر: التركيز في التكريس على شخص يسوع الإيحيدايا ليكون الهدف بغض النظر عن تفاصيل شكل التكريس، أي: ابن الله الوحيد هو الهدف من النسك.

أفراهاط هو الكاتب الأكبر الذي يخبرنا عن الإيحيدايا. من ضمن مواضعه، هناك مجموعة خاصة معنونة بـ«بناي قياما» أبناء العهد، وهو الاسم الذي كان يُطلق على الإيحيدايا في زمن أفراهاط،

(21) Eusebius of Caesarea, «Commentaria in Psalmos», PG 23.689.

(22) Robert Murray, Symbols of Church and Kingdom: A Study in Early Syriac Tradition (London / New York: Cambridge University Press, 1975) p.355.

لتمييز بعض الإيحيديا الذين لهم خدمة خاصة في المجتمع. فعند أفراهام الإيحيديا هم حتماً بتوليّون أي غير متزوّجين. إذ يقول: «إنّه حسن وجيّد لي أن أعطي هذه النصيحة لنفسي وإخوتي الإيحيديا، أن لا يأخذوا زوجات» ثم يصف بعد ذلك المعنى الديني الذي يبرّر اختياره البتوليّة. أفرايم السريانيّ أيضاً يتحدّث بالمعنى نفسه عن الإيحيديا، ولكن مع إشارات واضحة بأنهم لا يجب أن يتزوجوا، مع إشارات واضحة للمعنى المرتبط بالابن الوحيد، الذي هو أيضاً عند أفرايم: يشوع الإيحيديو.

بناي قياوما: أبناء العهد

كما ذكرنا سابقاً، فإنّ الجماعات الناطقة بالسريانيّة في القرن الرابع وربما أبكر من هذا التاريخ، الإيحيديا، سواءً كانوا بتوليّين (غير متزوّجين) أو قاديشي (مرسومين في الكنيسة)، ينتمون إلى طبقة غير رسميّة من المؤمنين في الكنيسة، أطلق عليهم لقب: بناي أو بناث قياوما. المعنى الذي أتت منه هذه الكلمة الثانية «ق-و-م» يشير إلى «قام» «وقف» وأيضاً إلى «عهد». قد تعني أيضاً «حالة» أو «محطة زمنية في الحياة»، أو حتى «القيامة». ولكن ما اتفق عليه معظم العلماء مثل الملفونو الكبير سيباستيان بروك، أن المعنى هنا هو: أبناء العهد. يتحدّث بروك في كتابه الشهير: «العين المستتيرة» أو «العالم الروحاني عند مار أفرايم السرياني»⁽²³⁾، عن أبناء العهد، خصوصاً في طقس تكريسهم وذلك في ليلة سبت النور من عيد القيامة، إذ يتعمّد الموعوظون ويتعهد المكرّسون

(23) سيبستيان بروك، العين المستتيرة نظرة مار أفرايم الروحانيّة للعالم ونظرته للعالم الروحانيّ، تعريب الأب جوزيف ترزي، ميشيغين 1992.

بالحفاظ على وعود معموديتهم بحياة القداسة. هذه القداسة ليست بالضرورة مرتبطة فيما إذا كان المكرسون متزوجين أو بتولين، بينما المهم هو في عهدهم لحياة القداسة مع يسوع ابن الله الوحيد.

في بعض المقاطع من مواعد أفراهاط وقصائد مار أفرام، الإشارة واضحة في ربطهم مع فكرة القيامة مع موعد تكريسهم في ليلة عيد القيامة، ولغويًا مرتبطة بوضوح مع الجذر «قايم». حسب مواعد أفراهاط، الإيحيادية والبنائي قياما هم ناس أخذوا شكلاً يشبه الملائكة، وبالنسبة لهم البتولية هي «المشاركة مع اليقظين في السماء».

فقط باحثٌ واحد هو: الأب ميشيل بريدي⁽²⁴⁾، الذي أكمل النقاش والاعتقاد بأن كلمة بنائي قيامي ببساطة تعني «أبناء القيامة»! وبهذا لا أحد يستطيع أن ينفي العلاقة الوطيدة بينهم وبين مفهوم القيامة التي هي حجر الأساس لمفهوم تكريس بنائي قيامي. ويمكننا أن نستنتج أن الاسم مرتبط مع العهد الذي قطعه هؤلاء المكرسون ليلة عيد القيامة في أن يبقوا أوفياء لنذورهم باليقظة والاستعداد الكامل لخدمة كلمة ابن الله الوحيد مثل الملائكة التي لا تنام.

إذن فإن دور الإيحياديا هو كأيقونة حيّة للفردوس المُستعاد، مثل يوليان الشيخ الذي تكلم عنه مار أفرام: هذه الأيقونة تتبلور وتتضح ضمن إطار الجماعة الكنسية الإكليزيولوجية.

أمّا البنائي قياما فهم مجموعة مميزة ينتمون إلى محطة

(24) Michel Breydy, «Les laics et les bnay qyomo dans l'ancienne tradition de l'Église syrienne», Kanon: Jahrbuch der Gesellschaft für das Recht der Ostkirchen 3 (1977) pp.51-75.

مرحليّة من الحياة الروحيّة، مُرتبطون ومُكرّسون بعهد خلال المعمودية، ومُرتكزون على مفهوم القيامة، هدف كلّ المسيحيّين. وهذه المرحلة كانت ما يُتوقّع من كل مُعتمد، بأن يكون جدّيّاً في تمسّكه بوعوده ليسوع.

الخاتمة

يبقى السؤال الأهم في ورقتنا هذه: ماذا يمكننا أن نتعلّم من مدرسة الـ«بناي قياما» اليوم؟

كما وجدنا في هذا البحث المختصر عن تكريس أبناء العهد، والذي يعكس روحانية الرهبنة السريانيّة البدائيّة، بأن السؤال الأهم في التجرد والتكرّس ليسوع لا يكمن فيما إذا كان المكرّس متزوّجاً أم لا، إذ إنّنا وجدنا أن أفراهاط ينصح رفقاءه أبناء العهد باختيار البتوليّة مثله، مما قد يشير -ربّما- إلى أنّ هناك بعضاً منهم كان متزوّجاً، ونصيحة أفراهاط هي أشبهُ بنصيحة بولس الرسول في البتوليّة. فالسؤال الأهم هو في مدى إخلاص المكرّس ووفائه للوعود التي قطعها أمام جماعة الكنيسة.

أعتقد أنّ فهم هذا النوع من التكريس هو أمرٌ مهمٌ جدّاً في الكنيسة اليوم، أوّلاً: لأننا بهذا نفهم المبدأ الأساسي الذي قامت عليه الرهبانيّة في القرن الرابع، ونكتشف أصالة فكرة التجرد والتخلّي في السير على درب القداسة. وثانياً: لأنّ التركيز على التكريس لشخص يسوع -بغضّ النظر عن الزواج أو البتوليّة- قد يفتح المجال أمام كثيرٍ من الملتزمين، ويدعوهم لعيش حياة الرهبانيّة مع عائلاتهم تحت إطار مكرّسي أبناء العهد. أعتقد أنّ هذا المفهوم يتوافق مع مبادئ الرهبانيّة

العلمانية، أو -مثلاً- كما في الرهبنة البندكتانية اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ هناك عدد كبير من المكرّسين، ومنهم مَنْ هُمْ مع عائلاتهم مرتبطون مع أديرةٍ ويعيشون دعوتهم الخاصّة تحت رعاية الدير الذي ينتمون له روحياً.